الجزء السابع والثامن المجلد الحادي والعشرون

مجلة
المجمع العلمي العربي

تموز وآب سنة ١٩٤٦ شعبان ورمضان سنة ١٣٦٥

العلامة المراغي شيخ الأزهر (١)

لم تنبغ أمة من الرجال في العلم والآداب بقدر ما نبغ من العرب ومن دخل في جملتهم من الأجناس والعناصر · حقيقة اعترف بها من تجردوا من الغرض في درس تاريخنا من الافرنج · بيد ان من كان لهم طابع خاص وأثروا تأثيراً لم يؤثره غيرهم كانوا فلائل في كل جيل ولا سيما في القرون الأربعة الأخيرة · فلو فرضنا ان من استحقوا ان تدون سيرتهم في هذه الملة لا يقلون عن مئة الف لا يتجاوز النوابغ الممتازون منهم المئات ظهروا خلال عمر هذه الأمة الطويل وخدموا بأبحاثهم وتآليفهم ودروسهم ومواعظهم ·

وقد وضع العلامة ريبرا من علماء المشرقيات من الاسبان جزازات في تراجم ثلاثين الف عالم وأديب أخرجتهم الأندلس من رجال العرب في ثمانية قرون · وليسوا كلهم بالطبع من عيار ابن رشد وابن باجة وابن حزم وابن زهر وابن الخطيب وابن خلدون كما ان من ظهروا في الشرق ليسوا كلهم من طبقة الرازي وابن سينا والفارابي والبيروني وأبي حنيفة والجاحظ والنظّام والخليل وابن المقفع وابن تيمية ·

(١) ألقيت أولاً في ردهة المجمع العلمي العربي ·

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ظهر في الاسلام ألوف من المحدثين والطبقة المختارة منهم عشرون أو ثلاثون وظهر عشرات الألوف من الفقهاء واهل الطابع الخاص منهم الممتازون بإبداعهم ليسوا كثرة ، وخرج مئات من الحكماء ، والمشهورون منهم لا يعدُون العشرات . ان الدساتير يحفظها اكثر من يعانون أعمال العقل والعبرة بما يتم على أيديهم وبما يحملون الى امتهم من جديد يجدي عليهم .

كان العلم في العصور الماضية يصدر عن العواصم الكبرى يُهرع اليها ارباب الكفايات لما يجدونه فيها من استعداد لسماع اقوالهم والانتفاع بمواهبهم . وكانت المدن الذاهبة بهذا الفضل بادئ بدء البصرة والكوفة والمدينة ودمشق وبغداد والفسطاط والري وشيراز واصفهان ونيسابور ثم النجف والموصل وصنعاء وصعدة وفاس والقيروان وتونس (افريقية) والقاهرة . ولما تحيف الخراب معظم هذه العواصم وانحطت في مدنيتها بقيت القاهرة وتونس وفاس والنجف تخرج علماء للأمة فعدت لذلك مراكز العلم . وكان الجامع الأزهر اشهرها واعظمها لتوسط مصر بين مدن الاسلام في إفريقية وآسيا ولأن اهل الخير من سكانها وقفوا على هذا الجامع من الاحباس ما يضمن الانتفاع به على الدهر ، ولأن مصر كانت في الاسلام دولة برأسها أو شبه دولة ممتعة بحكم ذاتي « والعلم مذ كان محتاج الى العَلَم » .

وظلّ الأزهر يخرج رجال الدين منذ اقام صلاح الدين يوسف بن أيوب دولة السنة وقضى في مصر على دولة الشيعة الفاطمية . وكان اصحاب الفضل الواسع المتخرجون في تلك الدار أقلّ من القليل والمتوسطون كثرة على ما هم في كل زمان ومكان . والمتوسط في العادة ينسى والمبرز هو الذي يفاخر به تاريخ الامة ، ولا تبرح الألسن تردد ذكراه ، والصحف تنقل آراءه وأخباره ، والناس يستفيدون من كلامه ما انعقدت للعربية سوق وأقيمت شعائر الاسلام في ارض .

وممن نبغ في مصر من المتأخرين شيخ الأزهر العلامة الشيخ محمد مصطفى المراغي . اشتهر لا لأنه تولى اعظم منصب في الاسلام ، فقد يتولى المتوسطون

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

بعلمهم أسمى الرتب وهم لا يَعْدُون حفظ ما جرت العادة بحفظه ولا تمثلوا ما قرأوه . اشتهر لأنه كان حرياً بالشهرة جمع الى الفقه والأُصول ما تعوز العالم معرفته من أصناف العلم فما أتقن علوم الدين وقال : قَطْني ، بل تعلقت همته بمطالب أُخرى فشارك مشاركة لا بأس بها في المعارف التي كان رجال الأزهر ينفرون منها . وهذا من النادر في العلماء المعاصرين ، ونعني بالعلماء هنا علماء الدين . وكان العلم اذا أُطلق يراد به علم الكتاب والسنة فقط . والقاعدة عند من انصرفوا الى هذا الضرب من العلم ان صاحبه لا يشغل قلبه بغيره من اصناف المعرفة التي كانت في القديم العامل الأول في تميز العرب على من عاصروهم من الأمم وهي في العهد الحديث من أعظم الأسباب في قيام الحضارة الغربية .

ومن أهم ما ساعد المراغي على تفوقه على أقرانه ان امتاز بذاكرة قوية يذكر ما مرَّ به من خمسين سنة لا يخرم منه معنىً وقد جمع الى ذكائه الفطري استقلال الفكر وحب الاطلاع فما سد أُذنيه وعينيه عن سماع الجديد والنظر فيه ، وكان على مثل اليقين ان مجد الاسلام لن يكتب له الظهور ان لم يقرن بالعلم الجديد . استظهر القرآن وتدبره تدبراً قل ان كان في الفقهاء المتأخرين من داناه فيه ، وحفظ وهو في القضاء بضعة دواوين لشعراء معروفين من اهل الجاهلية والاسلام .

وحظه الحظ فتخلص من القيود التي وضعها اهل كل مذهب وقضوا ان تؤخذ اقوال صاحبه قضايا مقررة يحظر على العقل ان يجول فيها ، فهو مجتهد استوفى كل شروط الاجتهاد ومجتهد ممتاز بمشاورة العقل . نعم عزم الشيخ منذ تمت أدوات ثقافته ان يستقي من ينابيع الشريعة الصافية ولم يُغفِل ما تعب أهل المذاهب الجماعية به من الآراء والأحكام ، وما تشدد فيما رخص به الشرع او أقرته المذاهب الأخرى ، ودعا للعمل بجوهر الدين من دون ما تزمت ولا تضييق ، وحرص على ان يبعده عما لا يتفق مع منازع التجدد .

فصديقنا المراغي خلق عالماً امتاز بمرونته وما كان فيه جمود من أخملتهم التقية وما اتسعت صدورهم الا لما رووه عن مشايخهم او وقفوا عند حد ما قرأوه في

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الكتب وما عبأوا بسواه ، نظر وهو في سن الطلب في علوم لم تدخل برنامج الأزهر وشعر بفساد طريقة المشايخ في تدريسهم ، وشارك في الشكوى من الشروح والحواشي والهوامش ، ولطالما كانت تربك ذهن الطالب وتقصيه عن معرفة اللغة وعن روح الشريعة فيخرج كالببغاء يحفظ ما يلقنه دون ان يفهم معناه . وكان بقدر ما يعنى بالأخذ عن شيوخه يعتمد على درسه الخاص وبقدر ما كان يدأب على تحصيل دروس الأزهر يسمو به الشوق الى الاطلاع على ما في علوم الغربيين من متاع للروح والعقل ، وقد قيل لي انه تعلم اللغة الانكليزية أيام كان في السودان قاضياً واصبح يفهم الكتب العلمية فيها وانه قرأ ترجمة مير علي للقرآن باللغة الانكليزية وكان يصحح ما وقع من غلط في الترجمة الانكليزية . نعم لم يقيد الشيخ نفسه باعتبارات الأزهريين كثيراً شأن بعض النوابغ يشذون أحياناً عن مصطلح قومهم ويكون الخير في هذا الشذوذ .

استطال الشيخ اعوام الدراسة على ما يظهر وهمته تحفزه الى الاسراع بالخروج الى ميدان العمل ، فتقدم لامتحان العالمية وجاز السنتين الأخيرتين في سنة واحدة كما قال لي عن نفسه معتقداً انه ما دام قد تعلم ما يطلب منه معرفته فالواجب ان يُقدِم ولا يضيع وقته في الانتظار . وبهذا أثبت ان الطالب قد يتعلم في بيته اكثر مما يتعلم من حضور الدروس في أوقات مخصوصة على معلمين بعينهم . اما هو فقد جمع بين الفضيلتين ما زهد في التلقي ولا اقتصر عليه ، وروى العارفون انه حضر على المشايخ قراءة الكتب المطولة المعروفة عند الأزهريين إلا انه ما أتمّ قراءة كتاب منها ذلك انه كان يرى ان من العبث صرف الوقت في حل معميات هذه الأسفار .

دخل الأستاذ في الحياة العملية في سن مبكرة فتولى القضاء قبل أن ينتصف العقد الثالث من عمره وابان عن مقدرة على معاناته وظهر انه عارف بسياسة العلم وسياسة الخلق ، فكأن والده وهو رجل شرع مثله أورثه خير صفات من يعدلون بين الناس ، وكانت داره في الصعيد الأعلى مفتحة الأبواب لحل مشاكل قومه

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وفض خصوماتهم . وقد اخذ القاضي الشاب من بيته من الأخلاق عدلَ ما تعلمه في الأزهر من علم ، فسعد ابوه به وباخوته وهم بضعة علماء وقضاة على رأسهم ابنه الأكبر شيخ الأزهر الذي تولى هذه الرياسة العظيمة في حياة أبيه . اما بنوه هو فقد ربوا تربية مدنية ليس فيهم من لاث العمامة على رأسه .

أصبح المراغي شيخاً للأزهر في الثامنة والأربعين من عمره ، وندر من تولى هذه المشيخة وهو في هذه السن فأتى بنشاط الشباب وحنكة الشيوخ فاهتم الاهتمام كله لاصلاح الأزهر الذي كان واضع أساس الاصلاح فيه شيخه وشيخنا الأستاذ الامام محمد عبده . ولما شعر بأن لائحته في اصلاح الأزهر لن تقبل استقال ولزم بيته محتفظاً باستقلال فكره وعزة نفسه ، وخلفه في الرياسة الشيخ الظواهري وكان أشبه بشيخ زاوية منه بشيخ علماء وانحصر عمله في الاصلاح بطرد سبعين عالماً من خيار علماء الأزهر . وعاد الشيخ المراغي الى الأزهر ثانية بعد ما تركه الشيخ الظواهري بإهانة لم يهن مثلها شيخ قبله ، يشمر عن ساعد الجد في اصلاحه وأتمّ وضع اساس كليات التخصص ككلية علوم اللغة العربية وكلية أصول الدين وكلية العلوم الشرعية . وكان يعتقد ان الأزهر يحتضر منذ طلبت وزارة الأوقاف وهو من مفتشيها خطباً منبرية فجاءها خمسمائة خطبة لم تصلح واحدة منها لأن تلقى على المصلين ، يعتقد ذلك وهو يرى ان دار العلوم تنازع الأزهر افضليته في تعليم العربية ومدرسة القضاء الشرعي الملغاة تنازعه بتدريس الشريعة . وبإصلاح المناهج قضى الأزهر الحديث على فوضى التدريس فيه ، وبالرجوع عن البرامج العتيقة صُبغ الأزهر بما يلائم الزمن ، ويقرّب الأزهري من الحياة العملية ، وصارت دروسه القديمة بمثابة دروس ثانوية تهيئ الطالب للتخصص وهذا بمثابة الدراسات العالية او التعلم العالي .

تم له كل هذا بعد ان صرح في مذكرته الاصلاحية : واني اقرر مع الأسف ان كل الجهود التي بذلت لاصلاح المعاهد منذ عشرين سنة لم تعد بفائدة في نهضة التعليم وأقرر ان نتائج الأزهر والمعاهد تؤلم كل غيور على أمته وعلى دينه

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وقد صار من المحتم لحماية الدين — لا لحماية الأزهر — ان يغير التعليم في المعاهد وان تكون الخطوة الى ذلك جريئة ويقصد بهـا وجه الله تعالى فلا يبالى بما تحدثه من ضجة وصراخ وقد قرنت كل الاصلاحات في العالم بمثل تلك الضجة .

والى هذا شجع الشيخ أيضاً البعثات الأزهرية . ومتى كان الأزهر يقول بأكثر العلوم الحديثة حتى يذهب نوابغ طلابه يستزيدون من العلم في جامعات الغرب [1] ؟ ومتى كان طلاب الأزهر قبل المراغي يدرسون اللغة اليابانية وغيرها ليكون منهم دعاة يدعون الى الاسلام على نحو ما يدعو المبشرون الى النصرانية ؟ وفي أي عهد قرئت الفلسفة في هذا الجامع وشرحت قضاياها بحرية كما كان في زمن المراغي ؟ الى غير ذلك من الأمور التي كان يريد بها اطلاق عقول الأزهريين من عقالها وادخالهم في طور جديد ينفع .

حاول الشيخ النهوض بالأزهر بتثقيف خريجيه ثقافة جديدة وكان يحز في قلبه تخلف اهله في علمهم وعملهم وهو القائل في وصفهم : « انهم استكانوا في القرون الأخيرة الى الراحة وظنوا ان لا مطمع لهم في الاجتهاد فأقفلوا أبوابه ورضوا بالتقليد وعكفوا على كتب لا يوجد فيها روح العلم وابتعدوا عن الناس فجهلوا الحياة وجهلهم الناس ، وجهلوا طرق التفكير الحديثة وطرق البحث الحديث وجهلوا ما جدّ في الحياة من علم وما جد فيها من مذاهب وآراء فأعرض الناس عنهم ونقموا هم على الناس ، فلم يؤدوا الواجب الديني الذي خصصوا أنفسهم له وأصبح الاسلام بلا حملة ولا دعاة بالمعنى الذي يتطلبه الدين .

في احدى جلساتنا في دار الشيخ المراغي في حلوان ايام كونه معتزلاً الأزهر — وكثيراً ما كانت تدوم الجلسة ثماني ساعات — تفضل وقرأ عليّ بعض تقاريره الدينية ومنها تقريره في الأحوال الشخصية الذي صدر القانون المصري عليه ،

(١) سبقت وزارة المعارف في عهد وزيرها العالم معالي محمد حلمي عيسى باشا الى ارسال أول بعثة أزهرية الى الغرب تألفت من أزهريين وغيرهم من طلاب الجامعة ودار العلوم كنت فيها التفوق لطلاب الأزهر أولاً وآخراً .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وهو التقرير الذي لم يتقيد فيه بالمذاهب الأربعة واخذ من اكثر المذاهب المعتمدة ، وكتبه ببيان يقلُّ نظيره في الكتابات الرسمية ، فرجوته ان يطبع ما كتب فما رأيت منه ميلاً الى النشر ، وكان عمله في هذا الباب لا يقل نفعاً عن فتواه في الحد من الطلاق وقبله كان باب الطلاق مفتوحاً على مصراعيه . وقد حدثت في العهد الأخير حوادث في الطبقات العالية طلب اليه ابداء الرأي في الطلاق فأبى مع علمه ان امتناعه قد يغضب المستشير .

ومما دل على علو كعبه في حرية البحث فتواه في جواز ترجمة القرآن وله في هذه المسألة الشائكة بحث ممتع نشر في مجلة الأزهر . وفي هذه المجلة طائفة من تفسيره بعض سور الكتاب العزيز وبعض خطبه وآرائه وفيها فتاواه في المعضلات وهي تدور على تقريب الناس من الشرع والتوفيق بين الدين والمدنية ويبدو فيها نور العقل والتجدد .

وقد حملت اقاريره وتفاسيره من اساليب البلاغة ما يستكثر من شيخ ازهري . وفي الرسائل القليلة التي دارت بيننا نموذج من فصاحته وبلاغته . وكان يكتب بدون تكلف بألفاظ عذبة رقيقة لا سجع فيها ولا ازدواج . وعبارته رشيقة موجزة تشبه عبارات المؤلفين في القرن الرابع والخامس وتغلب عليه الفاظ القرآن وتحس ان كاتبها مشبع الى الغاية بألفاظه ومعانيه . أما طلاقة لسانه فكانت كبلاغة قلمه وربما ظن السامع وهو يتلو درسه او عظته او خطبته انه يقرأ من كتاب او من حفظه لأنه يشاهده وقد نسق كل فكر الى جانب اخيه ووضع ما يروى وما يريد ان يعلق عليه في مواضعه .

كان الشيخ حنفي المذهب ويأخذ من المذاهب الأخرى ما يناسب العصر والمصلحة ، وكان في اطلاعه على المذاهب الأخرى آية وكثيراً ما قال للجنة الأحوال الشخصية عند البحث في الهبة والوصية والوقف : ضعوا من المواد ما يبدو لكم انه يوافق الزمان والمكان وانا لا يعوزني بعد ذلك ان آتيكم بنص من المذاهب الاسلامية يطابق ما وضعتم .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ومن رأيه توحيد المذاهب وقال في احدى مذكراته « يجب العمل على إزالة الفروق المذهبية او تضييق شقة الخلاف بينها فان الأمة في محنة من هذا التفرق ومن العصبية لهذه الفرق » . « ومعروف لدى العلماء ان الرجوع الى اسباب الخلاف ودراستها دراسة بعيدة عن التعصب المذهبي يهدي الى الحق في اكثر الأوقات وان بعض هذه المذاهب والآراء قد احدثتها السياسة في القرون الماضية لمناصرتها ونشطت اهلها وخلفت فيهم تعصباً يساير التعصب السياسي ، ثم انقرضت تلك المذاهب السياسية وبقيت تلك الآراء الدينية لا ترتكز الا على ما يصوغه الخيال وما افتراه اهلها . وهذه المذاهب فرقت الأمة التي وحدها القرآن الكريم وجعلتها شيعاً في الأصول والفروع ، ونتج عن ذلك التفرق حقد وبغضاء يلبسان ثوب الدين ، ونتج عنه سخف مثل ما يقال في فروع الفقه ان ولد الشافعي كفء لبنت الحنفي ومثل ما يرى في المساجد من تعدد صلاة الجماعة وما يسمع اليوم من الخلاف العنيف في التوسل والوسيلة وعذبات العمائم وطول اللحى حتى ان بعض الطوائف لا يستحي اليوم من ترك مساجد جمهرة المسلمين ويسعى لانشاء مساجد خاصة » .

وقال : يجب ان يدرس الفقه الاسلامي دراسة حرة خالية من التعصب لمذهب وان تدرس قواعده مرتبطة بأصولها من الأدلة وان تكون الغاية من تلك الدراسة عدم المساس بالأحكام المنصوص عليها في الكتاب والسنة والأحكام المجمع عليها والنظر في الأحكام الاجتهادية يجعلها ملائمة للعصور والأمكنة والعرف وأمزجة الأمم المختلفة كما كان يفعل السلف من الفقهاء .

وقال بشأن دراسة التفسير والحديث : يجب ان يدرس القرآن دراسة جيدة وان تدرس السنة دراسة جيدة وان يُفهما على وَفْق ما تتطلبه اللغة العربية وعلى وفق قواعد العلم الصحيحة وان يبتعد في تفسيرهما عن كل ما ظهر للعلم بطلانه وعن كل ما لا يتفق مع قواعد اللغة العربية .

وصرح ان الكتب الأزهرية معقدة لها طريقة خاصة في التأليف لا يفهمها

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

كل من يعرف اللغة العربية وانما يفهمها من مارسها ومرن على فهمها وعرف اصطلاح مؤلفيها . وقال : كان اكثر العلماء يطرقون الاحتمالات المتعددة في عبارات الكتب وكان هذا هو كل شيء اشتهروا به في العلم وما كان يوجد فيهم من يستطيع ان يحاضر في موضوع علمي ولا ان يلخص مسألة من المسائل بعبارة يمكن ان تفهم ، وما كانوا يعنون بالموضوعات العلمية من جهة الأدلة ومقارنة المذاهب ونقدها، بل كانوا يعنون بالألفاظ فلم تكن الدراسة شهية مثمرة .

نعم هو يرى ان الشريعة جاءت لخير البشر وما دَسَّه فيها بعض المتأخرين بجهلهم أو تساهلهم يجب ان ينقى منها كما ينقى الزؤان من صوبة الحنطة ، ويعتقد اعتقاداً جازماً ان الله يحب ان تؤتى رخصه كما تؤتى عزائمه . واليكم ما قاله من مقالة أخيرة (جريدة الاهرام غرة رمضان ١٣٦٣) تحت عنوان « مرحلة من الحياة تقضت » وفيها كلام جليل لا يقول مثله الا رجل اتسع أفقه وعقله واستبطن اسرار مجتمعه وكان من عيار الشيخ المراغي في العلم قال :

هناك أمور ينبغي ان يترفق الفقهاء فيها بالناس وان يراعوا قواعد اليُسْر التي هي أخص صفات الاسلام ، يراعونها في العمال والمرضى ومن يخدم المرضى ومن يشابههم فيقربون الناس من الاسلام ولا يوقعونهم في الحرج . وعندي ان من يفطر بعذر ويصرح بذلك أطهر ممن يفطر من غير عذر او بعذر ويظهر أمام الناس بالتقوى يرائي الناس ولا يخشى الله . والترخص في المرض أو الترخص للمشقة في العمل يقدره أصحابها ويفتون أنفسهم فيها ، والرقيب هو الله ، والعلماء يبينون الحكم وهو اباحة الفطر للمريض ومن لا يقدر على الصوم أما تقدير القدرة فهو خاص بالعبد ولا شأن للعالم فيه . ثم استشهد بحديث من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة في ان يدع طعامه وشرابه .

ما كان الشيخ ممن يرضيهم الأمر الواقع بل كان ممن يجهدون بتغيير الحاضر بما ينفع المستقبل ويدعو الى الاعتبار بالماضي . استمعوا الى هذه الصفحة البديعة ، يصف فيها العصر الذي نشأ فيه شيخه الامام محمد عبده قال وأبدع :

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

« نشأ الشيخ في عصر من العصور القاتمة ، كل شيء فيه ممضٌ مؤلم للنفوس الحرة والفطر الصادقة: الأمم الاسلامية تنحدر علمياً وسياسياً واجتماعياً الى احط الدركات ، وليس لطالب الحرية العقلية بينها متنفس ، والدين يفهمه الناس على غير وجهه ، واللغة العربية اختلطت بغيرها من لغات العجم ، والزلفى الى الله لها طرق لم يشرعها الله ، والزلفى الى الحكام لها طرق لا يرضاها ذو مروءة . ذهبت ريح المسلمين وتفلت من أيديهم زمام الحياة العامة ، وتداعت عليهم الأمم كما تتداعى الأكلة على القصاع ، وليسوا قلة بين الأمم ، ولكنهم كغثاء السيل .

« ذهب يتعلم فتعلم كما يتعلم غيره قواعد جافة ليس لها حياة تصلها بمنابعها من الكتاب الكريم والسنة المطهرة . ولا بأس بها من لغة العرب وأساليبهم وأدبهم ، وتعلم القواعد في مختصرات رضيها ذلك العصر المظلم ، لا تفهم إلا بشروح وحواشٍ وصناعة خاصة ، فلا اللغة العربية بمسعدته على اجادة النظم والنثر والكتابة والخطابة وحاجة الحكومات والدول في التشريع والتنظيم ، ولا دراسة الكلام والمنطق بموصلة الى الاستدلال الصحيح الذي يطمئن اليه العقل ويقنع الخصم ، المتحدث في الاجتهاد وتخير الأحكام لتطابق الأحكام حاجة العصر ولتلائم أصول الأمم وأحوال الأزمنة مبتدع مخالف لما أجمع عليه المحققون ، والداعي الى سيرة السلف الصالح داع الى مخالفة سيرة العلماء المبرزين ، والداعي الى كتب الأولين مقصر عن فهم كتب المحققين المتأخرين ، والمنادي بأن كتب الفقه وكتب التفسير وكتب الحديث ملئت بمعلومات خاطئة . وبأوهام وقصص لفقها من قَبْلُ علماء الاسرائيليات مخالف لما درج عليه صالحو هذه الأمة وجهابذتها » قال : عاش الشيخ في هذه البيئة العلمية ضيق الصدر مرير العيش ، فمن من أصحاب الفطر الصادقة والنظر السليم ، يؤمن بالقرآن ويعتقد ان فيه هدياً وفيه شفاء ، وان شريعة محمد ﷺ عامة للأمم كلها وللعصور كلها ، يؤمن بأن هذه الدراسة الدينية والعربية تخرج للناس اماماً يهتدون بهديه ، ويشفي أمراض المجتمع في علمه وخلقه ونظامه ويضع له القوانين الصالحة والنظم اللائقة ؟

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الى ان قال « عاملان من أقوى العوامل وقفا في طريق الشيخ (الشيخ محمد عبده) عامل الحسد وعامل البيئة ومن المحال ان يوجد رجل كالشيخ في صفاته وعلمه لا يحسد ، ولو انه لم يحسد ولو انه لم يرم بالكفر والضلال ، ولو انه لم يشتد حسّاده ولم يقاوم أشد المقاومة بسبب الحسد لما كان شيئًا يتحدث عنه ولما كان رجلاً من رجال التاريخ » قال وسبب ثالث له خطره « وهو أن جهة من جهة ذات نفوذ اظهرت عدم الرضا عن الشيخ وساعدت خصومه وان جهة ذات نفوذ آخر ساعدته وشدت أزره فظن القوم انه رجل يريد افساد الدين وافساد العلم » . ومن أشد مظاهر الحسد إذ ذاك ان عالمًا من كبار العلماء كتب سلسلة مقالات في جريدة المؤيد يحرم فيها تعليم الحساب والجبر والهندسة والتاريخ في الأزهر ، لأن الشيخ كان أول المبشرين بتعليم هذه العلوم في الأزهر ، وكاد العناد يكون كفراً .

قال : ترك بذور اصلاح التعليم الديني وتعليم علوم العربية وبذور اصلاح القضاء الشرعي وبذور اصلاح المجتمع الاسلامي والأمم الاسلامية وليس في رجال تفسير كتاب الله من يضارع الشيخ أو يقاربه في تطبيق آي القرآن على سنن الاجتماع ، وفي تصوير هدي القرآن وفي فهم أغراض الدين عامة .

وختم الكلام عنه بقوله ودّعته ليلة سفري الى السودان لتولي قضاء مديرية دنقلة في نوفمبر سنة ١٩٠٤ فما قال لي أنصحك ان تكون للناس مرشداً أكثر من ان تكون قاضياً واذا استطعت ان تحسم النزاع بين الناس بصلح فلا تعدل عنه الى الحكم فان الأحكام سلاح يقطع العلاقات بين الأسر ، والصلح دواء تلتئم به النفوس وتداوى به الجراح . وداعبني مرة أثر خروجي من امتحان شهادة العالمية قائلاً : هل تعرف تعريف العلم ؟ فقلت له : نعم ، وكنت أحفظ إذ ذاك أكثر تعاريف العلم ، فسردت بعضها ، فقال : اسمع مني تعريفًا مفيداً ، العلم هو ما ينفعك وينفع الناس . ثم سأل : هل انتفع الناس بعلمك ؟ قلت له : لا ، قال : إذاً انت لست بعالم فانفع الناس بعلمك لتكون عالمًا .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

هذا ما قاله الشيخ في شيخه وما قال الا الحق والغالب انه تقبَّل نصيحته بقبول حسن وأزمع ان يكون من ذاك اليوم عالماً كما يريد امامه ينفع الناس بعلمه فجرى على هذه الخطة في القضاء ثم في مشيخة الأزهر وما انفك يدرس ويعظ ويكتب ويفسر القرآن ويدعو الى الأخذ بالكتاب والسنة ويسهل على قاصديه وسامعيه فهم الشريعة السمحة ويطبق أحكامها على العصر أو يطبق احكام العصر عليها واعترف مرة اننا لم نوجد جديداً نافعاً في علم من العلوم حتى الآن ، وما أصدق ما قاله عنه صديقي الأستاذ الشيخ محمود شلتوت من جماعة كبار العلماء ان الشيخ المراغي ما خرج بروحه وعلمه وعقله وتفكيره عن ان يكون تلميذ الأستاذ الامام محمد عبده . وقال مرة : « ولدى الأمة الاسلامية قضايا كثيرة معقدة ، قضية الرجوع بالدين الى كتاب الله وسنة رسوله وأعمال الراشدين . وقضية التعليم الديني على وجه صحيح يوافق ما أثمرته التجارب في الحياة وما أخرجته العقول من ثمرات ناضجة ، وقضية حماية الدين من العدوان والدعوة اليه كما امر الله بالحكمة ، وقضية نظام الأمم الاسلامية وارتباطها بعضها ببعض ارتباط تعاون وتناصر ، وقضية الفقراء والضعفاء واليتامى والمساكين وتدبير أمرهم بحيث تخفف عنهم آلام الحياة وينتفع المجتمع بهم .

« وهناك قضية هي أهم القضايا وهي مقومات الأمم الاسلامية التي يجب ان يحافظ عليها ويبنى المجد على أساسها وهي قضية دقيقة يثور من أجلها عن قصد أو غير قصد خلاف بين المتعلمين وغير المتعلمين والمتمدنين وغير المتمدنين ، ويترتب عليها نظام الاجتماع وقوانينه ونظام التقاليد والعادات .

ولدى الأمم الاسلامية ماض يجرر اثواب الفخر والشرف في كل ميادين الحياة : في ميدان العلم وفي ميدان الفنون وفي ميدان السلطان والعز ، وميدان التشريع والقانون ، لكن بعض الناس يحاولون طمس اعلام هذا الماضي والتخلص منه والزراية عليه والحط من شأنه ويحاولون بناء مجد جديد على أرض بيضاء بحيث لا يكون بين الحاضر والماضي صلة .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

«وليس أدعى الى الدهشة ولا أبعث على اللوم من هذه المحاولات التي فيها عقوق الأبناء للآباء ونكران الجميل وانكار التاريخ وفيها لؤم الطباع وسفه الجاهل وطيش المغرور.

«وهل يستطيع عاقل ان ينكر ان لنا أسساً صحيحة قويمة من دين وعلم وتقاليد ومقومات من حقها ان نحافظ عليها وان نعتبرها تراثاً عزيزاً لا يليق ان نبدده كما يفعل الوارث السفيه.

«يحاول بعض الناس هذا مع ان الأمم التي ليس لها ماض تحاول ان تخلق لها نسباً بماض مجيد. وبعض الأفراد الذين لهم ذكر نابه بأعمالهم وليس لهم نسب معروف بالمجد يحاولون ان يخلقوا لهم أنساباً معروفة بالمجد والشرف ليحدثوا في نفوس الأبناء شعوراً بعظمة من حقها ان يحافظ عليها اهـ

وصف ما حمله القرآن من التعاليم وردّ دعوى بعضهم ان فيه علوم الأولين والآخرين بقوله: «انه كلما حدثت في العالم فكرة طريفة اجتهدوا في تلمسها في القرآن وفرحوا ان استطاعوا الاهتداء الى اشارة بعيدة اليها، يفعلون هذا في جميع النظريات المرتبطة بالكون وأسراره وقواعد الاجتماع والسياسة ولكن من حقهم ان يفهموا ان المعارف البشرية غير مستقرة وانها تتغير ويتجدد بدلها معارف أخرى تختلف عنها أو تناقضها وانه ليس من الحكمة ان نربط هذه المعارف غير القارة بكتاب الله الثابت الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه. ومن الخير ان ندع كتاب الله يقرر لنا أحكام التشريع ويهدم الوثنية ويجتثها من أصولها، ويرفع العقل البشري الى المستوى اللائق به، ويأخذ بيد الانسان الى المقام الأسمى اللائق بخلافته في الأرض، ويبين لنا العبرة والعظة بأحوال الماضين، ويغرس في نفوسنا تلك الأخلاق الفاضلة من الصبر والقناعة والرضا والشجاعة ويفتح أمامنا أبواب العلم والهداية بما أشار اليه من وجوب النظر فيما صنعه الله. خير لنا ان نفعل ذلك وندع العلماء يقررون معارفهم ويستدلون عليها، ويحملون نتيجة خطئهم اذا تغيرت معارفهم وأثبت العلم نقيضها. قال نعم ان في الكتاب الكريم آيات لا تفهم حق الفهم الا بمعارف فلكية وطبيعية،

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ولكن تلك لم تُسَق لتقرر تلك المعارف وإنما نزلت للهداية والعبرة . فليس القرآن الكريم كتاب حساب وفلك وطبيعة وانما هو كتاب هداية وتنظيم لعلاقة الانسان بربه وعلاقة أفراد الناس بعضهم ببعض » .

أجمع انصار السيد المراغي وخصومه على انه كان من خير من تولى رياسة الأزهر لصفات كثيرة اجتمعت له وقلّ أن تجتمع لغيره ذلك لأنه كان يعرف ما هنا وما هنالك ، ويعد من العلماء العارفين بأزمانهم معرفة ثاقبة . طلب اليه ان يترك رئاسة الأزهر ويعطى ما شاء من الأفدنة والمال فأبى . وطلب اليه ان ينضم الى جهة معينة في الرأي (حزب معروف) ويكون له ولأولاده وذوي قرباه ما شاء من الكرامة فأبى وقال ان أولادي واخوتي في نظري أقل من أن أبيع لهم كرامتي .

كان يستميل بحديثه قلوب سامعيه وتفعل في نفوسهم نبراته اللطيفة وان كانوا ممن لا يوافقونه على آرائه كلها . تأدب بأدب الدنيا وأدب الدين اذا عاشرته تتحقق انه بلغ الغاية في التهذيب الحديث مضافاً الى ما تحلت به نفسه من فضائل الاسلام ولا تلبث ان تقول ان الشيخ يصلح لإمامة الدين كما يصلح لإمامة الدنيا اي ان يكون شيخ الاسلام يدعو الى عقيدة وايمان وان يكون رئيس وزارة يعاني من احداث الزمان ما يعاني . ولا نكون الى الغلو اذا ادعينا انه قل في امثاله من استجمعوا صفات العظمة الحقيقية . وله في باب الاريحية أشياء عرفت عنه بالعرض تدل على صفاء روحه وفضل نجدته . كان يتصدق في السر وهو ليس بغني ويأخذ العهد على من يعطيه ان يكتم ما وصل اليه منه . وحدث ان احد أصدقائه من أهل العلم هدّد بالافلاس ان لم يؤد ما استحق عليه من مال للحكومة ففتح الشيخ دواوين الأزهر ليلاً ليبتاع منه مقداراً من الكتب ويدفع له ثمنها في الحال لينقذ شرفه واعتباره .

ولقد انتخبه المجمع العلمي العربي عضواً مراسلاً فيه فاعتذر بكثرة أشغاله قائلاً انه استقال من المجمع اللغوي في مصر للسبب ذاته ، ودعوته لينزل عليّ ضيفاً في دمشق ويصطاف في ربوعنا فتعذر عليه البر بوعده لأن حالته لم تمكنه من مغادرة القطر خصوصاً بعد عودته ثانية الى مشيخة الأزهر .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

أخذت الأعمال الادارية والسياسية والقضائية من وقت الشيخ الأكبر فكان شأنه شأن أستاذه الشيخ محمد عبده لم يخلف مؤلفات كبيرة يودعها لباب علمه وزبدة تحقيقه ، وما خطته يمينه دعت الى تسطيره الدواعي وقام به لأمور اقتضتها حالة عمله . وعندي ان تقاريره ومذكراته ومقالاته كافية في الحكم عليه وافية في تخليد اسمه اذا تيسر لها من يجمعها ويطبعها[1] ورب صفحة تعادل بفائدتها رسالة مطولة ، وكم من رسالة هي أيضاً انفع لقارئها من تلاوة المجلد الكبير . وقد رأينا كثيراً من مدرسينا ممن تمت لهم آلات الفضل وشغلتهم دروسهم عن التصدي للتأليف كان نصيبهم منه نصيب المراغي ، ولو وجدوا متسعاً من أوقاتهم وصرفوا فيه ساعة كل يوم لانفتحت أمامهم طرق في العلم يهديهم اليها الدؤوب وطول النظر .

على ان الشيخ لم تحل مناصبه الخطيرة دون عمل ما ينفع الاسلام والمسلمين وما كان يستهويه غير النهوض بالمصريين يتلطف ، وهو الدراكة النطامي ، في وصف الدواء الناجع لاسقامهم وما كان يغفل من معاونة كل مسلم يهبط مصر من القاصية ليرشف من معين العلم في الأزهر مع انه لم يزر بلادهم ولم يختلط كثيراً بأهلها لما اقتضته حالة عمله وقيود مناصبه .

أهم ظاهرة بارزة في أخلاق الأستاذ المراغي تجرده من المطامع التي قد يتلوث بها بعض أهل صناعته فما أتى ما يشين سمعة العالم . وعلى طول تقلبه في درجات القضاء وآخرها رياسة المحكمة الشرعية العليا ما احصيت عليه زلة تنال من مروءته وشرفه وكانت أحكامه مثال العدل يتحدث المتحدثون بها لا يصانع في الحق ولا يداجي . وفي قضية الارث الكبير الذي كان يقدر بملايين من الجنيهات وما أبداه الشيخ من المتانة في احقاق الحق مثال من تقواه ، حتى لقد قذف بماء الفضة في عنقه يوم صدور الحكم وهو في طريقه الى المحكمة في القاهرة

(١) أخبرني شقيق صاحب الترجمة الأستاذ الشيخ أحمد مصطفى المراغي وقد قرأت عليه ما كتبت واستفدت منه أموراً في حياة الأستاذ الأكبر انه خلف مذكرات يومية يشرح فيها مواقفه مع رجال السياسة من المصريين والأجانب وان أسرته لا تريد نشرها قبل ان يمضي زمن على وفاة صاحبها لأن فيها مساساً ببعض المعاصرين .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ليتعذر عليه الحضور فأصر على الذهاب واصدر حكمه . ولو كان حب الدنيا مستحكماً فيه أكثر من حب الدين لجوز لنفسه تناول ما يغنيه من المال يدفعه المدعي راضياً . ولكن شيخنا كان يحسب حساب يوم الحساب .

ولما استقال من قضاء الخرطوم وعاد الى القاهرة أخذ يتبلغ بوظيفته مفتش مساجد في الأوقاف وصلى الخديو الجمعة في مسجد من مساجدها فلاحظ على المفتش ان الامام أعمى فأجاب أن الامام وهو العلامة الدجوي من جماعة كبار العلماء استوفى شروط الامامة والعمى لا يمنعه من القيام بما يطلب منه ، فغضب عزيز مصر ، ولما عرضت عليه حكومة السودان منصب قاضي القضاة اشترط ان يكون تعيينه ببرسوم خديو فقيل له ان مشاهرتك ستزيد بضعة أضعاف راتبك الحالي وأنت تشترط مثل هذا الشرط ، فكان له ما أراد . أما الخديو فرجع عن رأيه في المراغي وأدرك أنه قوال بالحق يهتم لدينه ولا يعبأ بالظواهر كثيراً . ولما ثارت مصر وانتقلت أخبار الثورة الى السودان كان قاضي قضاتها السيد المراغي في مقدمة المتظاهرين فلم يسع حكومة ذاك القطر الا أن تمنحه اجازة طويلة فأضاع منصبه ليخدم وطنيته . وجرى في مجلسه ذكر هلاك من لم يسلموا من الافرنج فأورد أسماء عظماء خدموا الانسانية منهم وقال انهم ناجون لأن الدعوة الى الاسلام لم تصلهم ونحن قصرنا في هدايتهم فلو كنا عرضنا عليهم الدين وما استجابوا له ربما ساغ لنا ان نقول انهم هالكون . وقال لي إنه حرض احدى الغنيات — لما خاف عليها الفتنة عند طلاق زوجها لها — على تعلم اللغة الفرنسية فشغل وقتها بما أسلاها في محنتها وكان من نصيحته ان تعلمت اللغة وتأدبت بأدبها من حيث لا تشعر . ولما مرّ ملك انكلترا بسواكن وكان قاضي قضاة السودان استقبله مع الحاكم العام وصافحه كما يتصافح المتماثلون فقال بعض الانكليز كان يصح له ان ينحني للملك كما انحنى المستقبلون قال : ليس في ديننا سجود لغير الله . واجتمع يوماً الى السير لامبسون سفير بريطانيا العظمى في مصر فقال له هذا ان السمكة تفسد من رأسها مشيراً الى بعض المقامات العليا فقال

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الشيخ ان السمكة تفسد من بطنها قال السفير : هذا غير صحيح وأنا صياد أعرف السمك معرفة جيدة قال: الغالب انك تحسن الصيد في نهر التيمس ، والصيد في النيل غير الصيد فى التيمس . ولما قيل له وهو في مشيخة الأزهر انه كان الأولى به ان يبتعد عن السياسة ويبعد الأزهر عنها وان يشغل به أوقاته قال ان الاسلام دين سياسة ولا يسعه ان يتخلى عنها . وفي أيامه انقسم الأزهر قسمين بتأثيرات الحزبية فاضطر شيخه الى ان يقف الى جانب الفريق الذي اعتقده على الحق فسبب له ذلك اضطرابات نفسية ما حمدت مغبتها على صحته . ولو سئل عن سلوكه هذا ما عدم حجة يبرئ بها نفسه من الوناء المشهود في انهاض الأزهر على عهده الأخير . والداخل يعرف ما لا يعرفه من وقف وقفة المتفرج في الخارج .

لو انتفع الناس ببعض ما تفيض فيه قرائح المصلحين ما بقي في الناس جهول ولا ضال ، وواجب دعاة الاصلاح الا يتوانوا فيما تمحضوا له مهما قل المستفيدون منهم .

المراغي كان على أوفر نصيب من العلم والعمل فهو شخصية نادرة بين أهل جيله رحمه الله رحمة واسعة .

محمد كرد علي

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net